

في الذاكرة

في ذكرى جورج حاوي

كريم مروة*

ما أكثر الأشياء والأحداث والوقائع التي يمكن لمثلي أن يتحدث عنها باعتزاز ومن دون عناء ومن دون مغالاة، ارتباطاً باسم جورج حاوي، وبسيرته النضالية، وبأفكاره، وبمبادراته، وبالدور المميز الذي لعبه على امتداد حياته في المعارك الوطنية والاجتماعية والقومية، وعلى جميع الجهات. ذلك أنني رافقت جورج حاوي منذ بداية شبابه، وفي تطور شخصيته، وصولاً إلى الذروة، التي تعددت صيغها في حياته، عندما كان يتبوأ المسؤولية الأولى في الحزب الشيوعي اللبناني، وعندما صار واحداً من الأركان الأساسية في الحركة الوطنية اللبنانية في تحالفها مع الثورة الفلسطينية، وعندما صار نجماً لامعاً في الحركة الشيوعية العربية والعالمية. ورغم أنه غادر كل هذه المواقع، بدءاً من الأمانة العامة للحزب الشيوعي، في المرحلة التي دخل فيها الحزب في أزمتها البنيوية ولم يغادرها، ومن الحركة الوطنية التي تفرقت شيعاً، ومن الحركة الشيوعية العربية والعالمية التي أرقها انهيار التجربة الاشتراكية في موطنها الأم، رغم كل ذلك لم تغادر شخصية جورج حاوي بريقها، ولا فقد جورج حيويته، ولا تخلّى عن أفكاره ومبادراته ولا عن مسؤولياته تجاه وطنه لبنان، وتجاه وطنه العربي الكبير، وتجاه القضية الفلسطينية التي ظلت، منذ شبابه الأول، مركز الاهتمام والهموم والقلق والأمل، حتى لحظة استشهاده.

لم أعرف في تاريخ علاقتي الطويلة بالحركة الثورية في عالمنا العربي شخصاً مثل جورج حاوي انتقل بتلك السرعة الصاروخية من فتى يافع شديد الحيوية والتمرد والشجاعة، رافض لقوانين البيت والمدرسة والكنيسة والدولة ونظامها، إلى مشروع قائد وهو في الواحدة والعشرين من عمره. إذ صرنا، هو وأنا، ابتداءً من سنة 1959 رفيقي درب وعمر في العمل داخل منظمة الحزب الشيوعي في العاصمة بيروت، وكنت أكبره بثمانية أعوام، وكنت سابقاً عليه في انتمائي إلى الحزب وإلى تحمل المسؤوليات فيه، داخل الوطن وخارجه.

عجيب أمر هذا الإنسان الذي هو جورج حاوي. عجيب أمره حين نستعيد اليوم بعد استشهاده مسيرة حياته النضالية، التي تكاد تقرب من نصف قرن. فهو من أكثر الشخصيات السياسية اللبنانية والعربية تعدداً، بالمعاني التي يشير إليها التنوع في الاهتمامات، من جهة، والجمع بين ما يبدو للوهلة الأولى متناقضات لا مجال للتوفيق والجمع بينها، من جهة ثانية. لكن أهمية جورج حاوي أنه كان، عندما يكتشف خلافاً في ما كان يعتقد صواباً، لا يتأخر دقيقة واحدة عن نقد الذات، وعن البحث عما يمكن أن يكون البديل الصحيح لذلك الخلل. وهو كان، في كلتا الحالتين، أميناً لمنطق ماركس الجدلي، ومعارضاً حازماً للمنطق الشكلي في ما كان سائداً في الفكر العربي في الحقبة التي أصبح فيها هو واحداً من قادة الرأي في بلده لبنان وفي العالم العربي.

خضنا معاً، هو وأنا وعدد كبير من أبناء جيله ومن أبناء جيلي من كوادر الحزب الشيوعي، في أواسط ستينيات القرن الماضي، معركة كبرى لتجديد الحزب، ولتحريره وتحريكه سياساته وأفكاره مما كان معهما باسم الاشتراكية ضد أفكار ماركس. وانتصرت حركتنا. ونقلنا الحزب إلى موقع فريد في الحركة الشيوعية لا تزال تذكره باعتزاز أجيال تلك الحقبة. وكان من أبرز ما تحقق في ذلك التجديد، وبدور أساسي من جورج، هو ما اعتبرناه إعادة اعتبار للديمقراطية في الحزب وفي البلاد، وإعادة الاعتبار للقوانين الموضوعية التي تحكم حركة التاريخ، وفق اشتراكية ماركس، وتجاوزاً لها في آن واحد، أخذاً في الاعتبار تحولات العصر. وفي هذا الاتجاه بالذات كان لحركتنا التجديدية موقفان أساسيان: الموقف الأول يتعلق بالإقرار بأن لبنان مثل سائر البلاد العربية، وطن حقيقي لأبنائه، وإنه، من هذا الموقع بالتحديد، يشكل جزءاً من وطن أكبر هو الوطن العربي. واعتبرنا، على هذا الأساس، أن من مهمة الحزب الشيوعي أن يكون في طليعة المناضلين من أجل وحدة عربية قائمة على قواعد الديمقراطية، وعلى أساس احترام خصوصيات كل بلد، وأخذاً في الاعتبار المصالح المشتركة والتاريخ المشترك والثقافة العربية المشتركة. الموقف الثاني يتعلق بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على أرض وطنه فلسطين، وحقه المشروع في النضال بالوسائل المتاحة لإقامة دولته المستقلة عليها.

ولأن المؤتمر الثاني للحزب الذي كرس التجديد المشار إليه قد عقد في أواسط سنة 1968، فقد كان للقضية الفلسطينية في سياسة الحزب موقع مميز. ومعروفة المبادرات التي كان جورج في أساس إطلاقها حول هذه

القضية، بالاتفاق وبالاختلاف مع قادة الثورة الفلسطينية. ومن أهم ما قررناه يومذاك وضع منظماتنا الحزبية في القرى الحدودية بكاملها في تصرف منظمات المقاومة. وبدأنا بتدريب الكوادر القتالية في مراكز تدريب المنظمات الفلسطينية في الجنوب بالذات، وفي سورية وفي الأردن. ثم شرعنا، بمبادرة من جورج، في إنشاء منظمة "قوات الأنصار" التي كنا نريد أن تكون صيغة سياسية وعسكرية لمساهمة الشيوعيين العرب في النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي والاستعادة الأرض المغتصبة في فلسطين وفي الدول العربية المجاورة. وحين شعرنا بأن جهودنا لتشكيل "قوات الأنصار" كانت تميل إلى الفشل، اقترح جورج إنشاء الحرس الشعبي في مطلع سنة 1970؛ هذه المنظمة التي استشهد في النضال تحت رايتها ضد القوات الإسرائيلية الغازية عدد من خيرة رفاقنا وكوادر حزبنا. قد يبدو في هذه الإشارات المتعددة إلى دور جورج المميز أنني أبالغ في ربط الكثير من قرارات الحزب باسم جورج. والحقيقة هي عكس ذلك. ويشهد على ما أقول جميع رفاق دربنا الطويل خلال تلك الحقبة المزدهمة بالصعوبات من تاريخ حزبنا وبلدنا.

الحديث يطول عن جورج حاوي وعن مبادراته، وعن سيرته النضالية. لكن هذا الحديث، مهما طال وتعددت جوانبه، سيظل قاصراً عن اختصار شخصية جورج حاوي. ذلك أن سيرة القادة الكبار من أمثال جورج حاوي هي وحدها التي تشكل المرجع الأصح لمعرفة صاحبها، عندما يغادر الحياة، ولا سيما إذا جاءت تلك المغادرة في صيغة همجية بعبوة أو بكاتم صوت، أو بسوى ذلك مما يستخدمه القتل الجبناء لإزالة الرموز الكبيرة من حياة شعوبهم وأوطانهم.

كريم مروة

بيروت في 2005/8/4

(*) نائب الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني سابقاً.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx